

فقه النّحو عند القاهر الجرجانيّ من خلال كتابه دلائل الإعجاز

The Fiqh of Ennahw according to Al-Qahir Al-Jurjani, as seen through his book "Dala'il al-I'jaz"

اسم الباحث : عبد الكريم بن محمد

المخبر: مخبر الدّراسات اللّغويّة والأدبيّة المعاصرة

1 مؤسسة الانتماء : جامعة محمد البشير الإبراهيمي برج بوعريّج - الجزائر

2 أيّمل الباحث: abdelkrim.benmohamed@univ-bba.dz

معلومات المقال	الملخص (لا يتجاوز 10 أسطر)
تاريخ الإرسال: 2025/11/14 تاريخ القبول: 2025/12/10	يعرض هذا المقال إسهامات عبد القاهر الجرجاني في مجال الدراسات النّحويّة القديمة، لاسيّما ما تعلق ببناء النّظرية النّحويّة وما أضافه إليها من جديد يخصّ الجانب الوظيفي للغة في سياقات التّخاطب والاستعمال الفعلي.
الكلمات المفتاحية: النحو، التعلق، الخطاب، اللغة، البنية، نظرية.	يكشف الباحث من خلال جهود الجرجاني النّحويّة ملامح فارقة لنظريّته النّحويّة المؤسّسة على مبدأ خطابيّ تواصلي، بناها على فكرة التّعلّق التي تربط بين مختلف الوحدات اللّغويّة الدّالة داخل الخطاب، بحيث تحتلّ كلّ وحدة لغويّة ترتيباً مخصوصاً تفرضه متطلبات المقاصد ودواعي الاستعمال الفعلي للغة، لكن دون المساس بقواعد الوضع اللّغويّ (النّظام). يمكن إدراج صنيع عبد القاهر الجرجاني ضمن اتّجاه بحثي، نصلّح على تسميته بـ (فقه النّحو) ما تناوله الباحث في هذا المقال يُعتبر دراسة تأصيليّة لمجال بحثيّ ابتدعه الجرجانيّ في حقل علوم اللّسان العربيّ.
Article info Keywords: <i>fiqh grammar</i> , meaning <i>grammatical</i> ; <i>theory usage</i> . communicative	Abstract This article presents Abdul Qahir al-Jurjani's contributions to the field of ancient grammatical studies, especially those related to the construction of grammatical theory and what he added to it regarding the functional aspect of language in the contexts of communication and actual use.

Through Al-Jurjani's grammatical efforts, the researcher discovers distinctive features of his grammatical theory, which is based on a communicative rhetorical principle. He built it on the idea of connection that links the various meaningful linguistic units within the discourse, so that each linguistic unit occupies a specific arrangement imposed by the requirements of the intentions and the reasons for the actual use of the language, but without affecting the rules of the

he work of Abd al-Qahir al-Jurjani can be included within a research trend that we call (Fiqh of Ennahw Alarabic). What the researcher has addressed in this article is considered a foundational study of a research field that al-Jurjani pioneered in the field of Arabic linguistics

مقدمة:

يمثّل القرن الخامس الهجري انزياحا حقيقياّ نحو قرون الانحطاط الفكريّ والثّقافيّ وعصور الجمود والتّقليد لاسيّما في مجال الدّراسات النّحويّة التي طغى عليها كثرة الشّروح والتّعقيدات، وقد نتج عن ذلك انغلاق مفاهيم النّحوي واضطراب مصطلحاته وتعمّد مسأله. مثّل هذا الواقع تحدّيّا كبيرا لصاحب نظرية النّظم؛ العالم اللّغوي الفدّ عبد القاهر الجرجاني (ت-471هـ) حيث حاول إنقاذ النّحو من الحال التي آل إليها انطلاقا من رؤيته الجديدة له.

تجلّت محاولة الجرجانيّ التّجديدية في بناء نظريّة أو اتّجاه نحويّ غير مسبوق إلّهما يتأسّس على جملة من المفاهيم أقامها على مبدأ الجمع بين الأحكام النّحويّة وحكمه؛ أي الرّبط بين مختلف البنى النّحويّة ومقاصد المتكلمين التّواصلية. بحيث تكون البنية

اللّغويّة المتجسّدة في السلسلة الكلامية للمتكلّمين تابعة لأغراض الخطاب وملايساته. بسط هذه النّظرية أو الاتّجاه النّحويّ تنظيرا وتطبيقا في كتابه (دلائل الإعجاز) فلم يكتف بالوقوف عند أواخر الكلمات، وما يُحدثه العاملُ فيها من أثر. بل جعل المعاني ونوايا المتكلّم ومقاصده الحجر الأساسَ للسّلسلة الكلاميّة، وما تتضمنه من بنى نحويّة، تنقاد لنظام الترتيب وبنية المعاني القائمة في النّفس.

يجسّد كتاب دلائل الإعجاز مرحلة جديدة ومنعطفا حاسما في تاريخ الدّراسات اللّسانية العربيّة، وهي مرحلة الدّراسة الوظيفيّة للّغة. لكنّ العقل العربيّ عصرئذ لم يكن مهيئا لقبول التّجديد بسبب ألفته التّقليد والجمود* ردحا من الزّمن غير القصير. وكان من أخطر نتائج هذا الإعراض وعدم تقبّل الجديد واستيعابه تحريفُ المفهوم العلميّ الذي كان يقصده الجرجاني من مصطلح ((معاني النّحو)) حيث تمّ اختطاف المفهوم بعد أن فصلوه عن أصله أي: النّحو، وأسّسوا له علما جديدا، صيّروه فرعا من فروع علم البلاغة سمّوه علم المعاني" وآخرون منهم أخذوا الأمثلة التي ضربها عبد القاهر بيانا لرأيه، وتأييدا لمذهبه، وجعلوها أصول علم من علوم البلاغة سموه (علم المعاني) وفصلوه عن النّحو فصلا أزهد روح الفكرة وذهب بنورها"¹ فصيّروا النّحو جسدا بلا روح ولفظا بلا قصد وشكلا بلا معنى.

* -أمّا في عصرنا الحالي، فقد تمّت سرقة أفكار الجرجاني اللّسانية من طرف بعض العلماء الغربيين ونسبوها إلى أنفسهم، بينما ذهب بعض مثقفي العرب المنهريين بالثقافة الغربيّة إلى المقارنة بين أفكار الجرجاني والأفكار التي جاءت بها مختلف المذاهب اللّسانية الغربيّة الحديثة، بل وجدنا بعضهم من ينسب إلى نفسه الكثير من هذه الأفكار دون حياء أو خجل.

1- إحياء النّحو. ص 19.

استطاع الجرجاني أن يعيد للنّحو شقّه الذي سُلِب منه، الذي كادت الدّراسات النّحويّة السّابقة أن تُزهد النّاس فيه، ونعني به معاني النّحو -كما يسمّيها عبد القاهر الجرجاني نفسه - "ومن هنا نشأت هذه الفكرة التي تتردّد على الخواطر منذ زمن طويل أنّ النّحو العربيّ أحوجّ ما يكون إلى أن يدّعي لنفسه هذا القسم من أقسام البلاغة الذي يسمّى علم المعاني"¹ ولعلّ عبد القاهر الجرجاني هو أوّل من قام بمثل هذا العمل المبدع من خلال كتابه دلائل الإعجاز. وأثناء دراسته وشرحه لنظريته في النّظم -الذي يعدّه قوام ظاهرة الإعجاز- نظرا وتطبيقا على نماذج من القرآن الكريم وكلام العرب الفصيح شعرا ونثرا، يلاحظ القارئ المدقّق أنّ الجرجاني يرسّي بهذا العمل قواعد وملامح اتّجاه جديد في دراسة اللّغة من حيث هي وضع واستعمال. يبدو أنّ العصر الذي سطع فيه نجم عبد القاهر -بفضل إنتاجه المعرفي المبتكر- كان يعيش اللّحظات الأخيرة من عهد إشعاع الحضارة العربيّة الإسلاميّة، حيث انحرف اتّجاه علمائه البحثيّ نحو طيف الاجترار والتّقليد في مسار الدّراسة النّحويّة. وظهر عجزُ بيّن لدى علماء العصر في استيعاب القيمة العلميّة للأفكار التي جاء بها الجرجاني، وما تميّزت به من جدّة وإبداع، فلم يكن هؤلاء العلماء مهينين لتقبّل كلّ جديد أو إنتاج معرفيّ، يقوم على الإبداع والابتكار "وقد كانت العُجْمَة إذ ذاك غالباً بغلبة الأعاجم، والعلماء واقفون من علم العربيّة عند ظاهر لفظها، لا يبلغ

¹- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، المغرب: 1994. دار الثقافة ص18.

بهم الحسّ اللّغويّ أن يذوقوا ما ذاق عبدُ القاهر، ولا أن يدركوا ما أدرك¹ ولم يتفطن النّحاة لهذا الابتكار، فلم يضيفوا إلى أبحاثهم النّحويّة شيئاً ذا قيمة، ولم يستثمروا في الأفكار التي ابتدعها الجرجاني التي مثلت اتّجاهاً جديداً في الدّراسة النّحويّة، فوُئدت فكرته المبتكرة في مهدها، وبقيّ نحاة هذا العهد يجتزون ما قاله الأوّلون، بل زادوا النّحو رهقا بما أضافوه من فلسفة تعليليّة ذهبت برونق معانيه ومصطلحاته الأصيلة.

عبد القاهر الجرجاني وفقه النّحو العربيّ.

إذا كان إسهام عبد القاهر الجرجاني في الدّرس النّحويّ التّراثيّ يمثّل علامة مائزة ونقطة تحوّل في الاتّجاه البحث اللّسانيّ العربيّ عصرئذ، فإنّ القارئ المتأمل في القضايا اللّغويّة التي تناولتها بعض فصول كتاب ((دلائل الإعجاز)) وطريقة معالجة موضوعاتها، يلحظ منذ الوهلة الأولى المنهجية المتميّزة التي انفرد بها عبد القاهر عن سابقه في دراسته لمختلف الظواهر اللّغويّة، والكيفيّة العجيبة التي بنى عليها نظره في النّحو العربيّ، معتمداً في ذلك على مجموعة من المرتكزات و المفاهيم المؤسّسة على مجموع العلاقات القائمة بين مقاصد الخطاب والأحكام النّحويّة من جهة، وما يتطلّب الاستعمال الفعليّ للغة من قواعد وجوبيّة يقوم عليها اللّسان العربيّ من حيث هو نظام، وأخرى يجيزها كضرورة لنجاح عمليّة التّواصل اللّغويّ.

¹- إحياء النّحو. ص20.

يمكننا أن ندعيّ أنّ عبد القاهر الجرجانيّ تفرد بهذا الصّنيع والمنهج العلميّ المتميّز فخطا به خطوات متقدّمة في مجال المعرفة النّحويّة، ومن ثمّ نعتقد أنّ الموضوعات

التي تناولها الجرجانيّ في كتابه (الدلائل) والأفكار والمفاهيم التي سمحت له باستيعاب العلاقات التي تربط بين أبعاد ظاهرة التّخاطب المتعدّدة وابتكاره لمنهج متميّز في التّحليل والمعالجة، ربّما يكون بذلك قد أسّس الجرجانيّ لفرع معرفيّ جديد لم يُسبق إليه، ولم ينتبه الذين جاءوا بعد إليه. ونقترح أن نسمي هذا الفرع المعرفيّ بـ : (فقه النّحو) ،وهي تسميّة نراها أوسع مفهوماً، وأكثر إحاطةً للموضوعات التي تناولها كتاب الدلائل.

انطلق عبد القاهر في بناء هذا الاتّجاه النّحويّ الجديد منهجاً وموضوعاً وغايةً من فكرة النّظم المحوريّة وربطها بمعاني النّحو¹ وأحكامه والأغراض والمعاني التي يؤمّمها المتكلّم. وبفضل هذه الفكرة أعطى عبد القاهر الجرجانيّ للنّحو بعداً وظيفيّاً وآخر تداوليّاً، ممّا سمح له بتأسيس اتّجاه جديد في الدّراسات اللّسانيّة العربيّة، يقوم على مبدأ الوظيفة باعتباره أهمّ مبدأ تقوم عليه اللّغة البشريّة كوسيلة للتّواصل والبيان عن المعاني والإفصاح عن مقاصد المتخاطبين، وما يترتب عن ذلك من ضرورة الرّبط بين المباني النّحويّة والمعاني المستفادة منها، أو بين أحكام النّحو ومعانيه - حكمه- كما عبّر عنها الجرجانيّ نفسه. وهذا الرّبط يتطلب نوعين

1 عبد القاهر الجرجانيّ، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ط1، بيروت: 2000. المكتبة العصرية، ص 127 .

من المعرفة اللّغويّة يرتبطان بعلم الوضع وعلم الاستعمال، إذ لكلّ علم منهما قوانينه الخاصّة التي لا ينبغي إهمالها أثناء تحليل أحداث التّخاطب والتّواصل؛ نحو مراعاة

أحوال الخطاب، وما تتطلبه من تنوّع في استخدام الأساليب اللّغوية بحسب أغراض المتكلّم وحاجة المخاطب إليها "واعلم أنّ ليس النّظم إلّا أنّ تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النّحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت - فلا تزيغ عنها- وتحفظ الرسوم التي رُسّمت لك فلا تُخلّ بشيء منها"¹ وهذه الأصول، وتلك القوانين هي التي تحدّد وتضبط العلاقات القائمة بين مختلف وجوه التّصرّف في مواقع الكلم داخل السّلسلة الكلاميّة والمعاني التي يتوخاها المتكلّم من خلال هذا التّصرّف وترتيبه لأجزاء الكلام وفق طريقة مخصوصة.

إنّ الذي كان يروم إليه عبد القاهر الجرجانيّ بفكرة (معاني النّحو) هي تلك المعاني الدّقيقة التي تختفي وراء العبارات اللّغويّة والمقاصد التي يُضمّنُها منشئ الخطاب خطابه على وجه من الوجوه التي تسائر أحكام النّحو ومعانيه.

نهج عبد القاهر الجرجانيّ نهجاً مغايراً لسابقيه حيث رتّب وفق هذا المنهج أفكاره التي بنى عليها موضوعات كتابه ((دلائل الإعجاز)) فربط بين أحكام النّحو ومعانيه المستفادة من اختلاف وجوه تعلّق الكلم - داخل السّلسلة الكلاميّة - بعضها ببعض "فاعلم أنّ الفروق والوجوه كثيرة، ليس لها غاية تقف عندها، ونهاية لا تجد لها

¹ دلائل الإعجاز ، ص 127.

ازديادا بعدها، ثمّ اعلم أن ليست المزيّة بواجبة لها في أنفسها، ومن حيث هي على الإطلاق، ولكن تُعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام² فمنتج الخطاب حين يتلقّف بعباراته، ينسجها ويرتب عناصرها داخل التركيب ترتيبا يكون

خاضعا لنظام ترتيب المعاني التي تخطر له في النّفس، فترتيب المعاني في النّفس يكون حسب الأغراض والمقاصد- وهي في المقام الأوّل- ثم يتلوها ترتيب الكلم داخل السلسلة الكلامية الملفوظة- وهو ترتيب في المقام الثاني - فيكون التّرتيب الثّاني تابعا وعاكسا للأوّل، "وأنتك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك، لم تحتج إلى أن تستأنف فكرا في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنّها خدّم للمعاني وتابعة لها ولاحقة بها وأنّ العلم بمواقع المعاني في النّفس، علم بمواقع الألفاظ الدّالة عليها في النّطق"¹ ومن الأمثلة التّقديم والتّأخير فعندما تقول: (الاثنين صمتُ) فالمفعول به المقدّم على فعله وفاعله يمثل بؤرة الكلام على حدّ تعبير الوظيفيين، فأنت تريد تقصر صيامك على يوم الاثنين ولا يتجاوزته، بينما قولك: (صمتُ الاثنين) فيحتمل أن صمته وحده ويحتمل صومك أيضا يوما آخر" إذا قلت: (أجاءك رجل؟) فأنت تريد أن تسأله: هل كان مجيء من أحد من الرجال إليه؟ فإنّ قدّمت الاسم، فقلت (أرجلُ جاءك؟) فأنت تسأله عن جنس من جاءه: أرجل أم امرأة؟ ويكون هذا منك إذا علمت أنّه قد أتاه آت، ولكنك لم تعلم جنس ذلك الآتي²

مفهوم التّعلّق ودوره في بناء معاني النّحو وفقهه

²- دلائل الإعجاز. ص132.

1الدلائل.ص105.

2الدلائل.ص173

إنّ فهم أغراض الكلام ومقاصده لا يتمّ إلاّ بواسطة فكرة التّعلّق، وهي فكرة محوريّة في نظرية معاني النّحو وظاهرة النّظم عند عبد القاهر الجرجانيّ، ترتبط أيّما ارتباطاً بنظريّة العامل التي تعتبر قوام النّظام النّحويّ في اللّغة العربيّة، وعلى هدى قوانين هذا النّظام وأحكامه تنتظم الوحدات اللّغويّة دلالةً وشكلاً داخل تراكيب

اللّغة العربيّة، حيث يتمّ الرّبط بين المعمولات والعوامل بعلاقات مخصوصة " معلوم أنّ ليس النّظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض. والكلم ثلاث: اسم، وفعل، وحرف. وللتعلّق فيما بينها طرق معلومة، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام: تعلّق اسم باسم، تعلّق اسم بفعل، وتعلّق حرف بهما" ¹ فالتعلّق الذي هو مدار النّظم ثلاثة أنواع:

1 -تعلّق اسم باسم؛ في هذا النّوع من التّعلّق، والذي يجمع بين الاسم والاسم يذكر الجرجاني مجموعة من العلاقات المختلفة التي تربط بين الأسماء بعضها ببعض، " فالاسم يتعلّق بالاسم: بأن يكون خبراً عنه أو حالاً منه، أو تابعاً له صفةً أو تأكيداً، أو عطفَ بيان أو بدلاً، أو عطفاً بحرف. أو أن يكون الأوّل مضافاً إلى الثّاني، أو أن يكون الأوّل يعمل في الثّاني عملَ الفعل، ويكون الثّاني في حكم الفاعل له أو المفعول" ²ويمكن توضيح هذا النّوع من التّعلّق انطلاقاً من الجدول التّالي:

1 - تعلّق اسم باسم؛ ونذكر من هذا الضّرب من التّعلّق ما يليّ

¹-المرجع السّابق، ص 57.

²- دلائل الإعجاز. ص 57-58.

فقه النّحو عند القاهر الجرجانيّ من خلال كتابه دلائل الإعجاز

النّوع	المثال	المتعلّق	المتعلّق به	نوعه
الخبر	محمدٌ مسافرٌ	مسافر	محمد	مبتدأ
الحال	جاء محمد راكباً	راكباً	محمد	فاعل
التّابع	شجعت الطالبَ المجتهدَ	المجتهد (صفة)	الطالب	موصوف
	أكرمت الطالبَ عليّاً	عليّاً (بدل)	الطالب	مبدل منه
	كلّمت الرئيسَ نفسه	نفسه (توكيد)	الرئيس	مؤكّد
	نجح سعدٌ وعمرٌ	عمر (معطوف)	سعد	معطوف عليه
المضاف	أشرقت شمسُ الصّباحِ	شمس مضاف	الصّباح	مضاف إليه
الفاعل	محمدٌ قائمٌ أخوه	قائمٌ (اسم فاعل)	أخوه	فاعل
نائب الفاعل	الخير محمودٌ عواقبُه	محمودة (اسم مفعول)	عواقبُه	نائب فاعل
المفعول	محمد مطيعٌ أباه	مطيع (اسم فاعل)	أباه	اسم فاعل
المصدر	تأخير المرء صلاته إثمٌ	صلاته (مفعول به)	تأخير	مصدر
التّمييز	قرأ الطالبُ خمسَ عشرة كتاباً	كتاباً (تمييز)	الطالب	فاعل

2 - تعلّق اسم بفعل¹؛ ويذكر الجرجانيّ له ستّة أضرب :

الأضرب	المثال	المتعلّق	المتعلّق به	نوعه
الفاعل	سافر محمد	محمد (فاعل)	سافر	فعل
المفعول	أكل الولدُ تفاحةً	تفاحة (مفعول به)	أكل	فعل
	أكرمته إكراماً	إكراماً (مفعول مطلق)	أكرم	فعل
	سافرت فجراً	فجراً (مفعول فيه)	سافرت	فعل
	اجتنبت خشيّة شرّه	خشيّة (مفعول لأجله)	اجتنبت	فعل

1 دلائل الإعجاز. ص 58/59.

فقه النّحو عند القاهر الجرجانيّ من خلال كتابه دلائل الإعجاز

فعل	سرت	البحر (مفعول معه)	سرت والبحر	
ناسخ	كان	هادنا (خبر كان)	كان البحر هادنا	خبر كان وأخواتها
فعل	قابل	مبتسما (حال)	قابلني مبتسما	الحال
فعل	أعطى	دينارا (تمييز)	أعطيت الفقير عشرين دينارا	التمييز

3- تعلق الحرف بالاسم والفعل ثلاثة أضرب¹:

الأضرب	حروفه	وظيفته	أمثلته
- الضرب الأول: التّوسّط بين الفعل والاسم	حروف الجر للتّعدية نحو (الباء، على)	تعدية الفعل إلى ما لا يتعدى إليه بنفسه من الأسماء.	مررت بسعد أو على سعد.
	الواو بمعنى (مع)	عمل الفعل النصب في الاسم بعونها.	لو ترك الأمر وأهله لكان خيرا.
	إلا الاستثنائية بمعنى (مع) في التوسط	عمل الفعل النصب في المستثنى بوساطتها وعونها.	فاز الجميع إلا خالدا.
- الضرب الثاني: تعلق الحرف بما يتعلق به.	حروف العطف	إدخال المفعول الثاني في عمل العامل في المفعول الأول	- زارني سليم وعلي. - حدثت سليما وعلي. - وسلمت على سليم وعلي.
- الضرب الثالث: تعلق بمجموع الجملة.	الحروف الرابطة بين مجموع الجملة، نحو (حروف النفي، النفي، الشرط والجزاء، الاستفهام...)	ربط المسند بالمسند إليه وإثبات الحكم للجملة لا للمفرد وحده.	- ما خاب المجتهد. - ما المجتهد خائب. - هل نجح علي؟ إن تنجح في الامتحان أهدك سيارة.

1 - دلائل الإعجاز، ص 59، 60.

إنّ هذه الأضرِب الثلاثة هي مدار التّعلّق، حيث ترتبط الوحدات اللّغويّة داخل التّركيب ارتباطاً وظيفيّاً حسب ما تقتضيه الأحكام النّحويّة وتستدعيه المعاني النّحويّة

ومقاصد المتكلّم، " فهذه هي الطرق والوجوه في تعلّق الكلم بعضها ببعض. وهي كما تراها معاني النّحو وأحكامه" ¹ ومفهوم التّعلّق الذي يقصده الجرجاني في كتابه غير المفهوم الذي ورثه النّحاة وتمسكوا به في دراساتهم، فهو مفهوم يتجاوز المفهوم الذي اصطّلحوا عليه، ذلك المفهوم الذي يتعلق بمفهوم العلاقات اللفظيّة والتّقديرية للجار والمجرور أو الظّروف بالفعل أو ما يشبهه (*) وإنّما يعطيه مفهوماً أرحب وأوسع إذ لا يحصل إلّا في النّظام التّركيبيّ للجملة، ومن ثمّ يربطه بمفهوم الإسناد الذي يجمع بين طرفي الجملة لتحقيق الإفادة من خلال تصوّر نوع من العلاقات النّحويّة التي تربط بين الأبواب النّحويّة، كتصوّر علاقة الإسناد بين المبتدأ والخبر، أو الفعل وفاعله، أو علاقة التّعدية بين الفعل والمفعول به، أو التّبعيّة بين التابع و متبوع، إذ لا قيمة ذاتيّة لعنصر لغويّ إلّا بربطه بقيّة العناصر داخل التّركيب، وهذا الرّبط يُوجبه التّلازم والاستدعاء من أجل أداء المعاني وأغراض الكلام والإفصاح عن المقاصد

1- الدلائل، ص: 60.

(*) التّعلّق غير التّعليق، فالنّعليق إبطال عمل أفعال القلوب لفظاً لا محلاً، إذا تقدّم النّاسخ على معموليه ووجد فاصل بعده له الصّدارة: ظننت ما فاروق ناجح.

والنّوایا، كاستدعاء الفعل لفاعله، والمبتدأ للخبر، وحرف الشّروط لجملة الشّروط وجوابه، ولا يكاد يخرج كلّ ذلك عن مفهوم العامليّة في علم النّحو العربيّ وما ينجرّ عنه من علاقات ضروريّة تقع بين الكلم. وإذا كان التّكوّن الطّبيعيّ للّغات البشريّة يستدعي عمليّة الإسناد مراعاة لعمليّة التّبليغ والتّواصل التي هي الوظيفة الأساسيّة للّغة البشريّة، فلا يمكن أن تتمّ الفائدة من الكلام ما لم تراعى فيه العلاقة القائمة بين

المسند والمسند إليه لفظاً أو تقديرًا. فالمسند؛ هو الشيء المثبت أو المنفي أو المطلوب حصوله، يتمثّل في الفعل/الخبر/ (المبتدأ والخبر في الجملة الاسميّة الثّانيّة: الرّبيع جوّه جميل). أمّا المسند إليه؛ فهو اللفظ المنسوب إلى المسند، ويتمثّل في: الفاعل/ نائب الفاعل/المبتدأ. وهذه العلاقة بين المسند والمسند إليه موجودة في أحوال الكلام ملحوظة أو ملفوظة، وظاهرة حذف العناصر اللّغويّة أثناء الكلام لا يعني إلغاء أحد عنصري الإسناد. بل إنّ الحذف كعلامة عدميّة هو نفسه علامة استدعتها مقاصد المتكلّم وضرورة مراعاة المقام، فالمتكلّم قد يلجأ إلى حذف المسند أو المسند إليه حسب النّوایا التّواصلية التي يريد أن يضمّنّها كلامه ومراعاة لمقامات التّخاطب، فإذا سئلت:

-من جاء؟ تجيب:-عمر.

فتحذف المسند (جاء) لعلم المخاطب به استناداً إلى السّياق، كما قد يحذف المسند إليه (عمر) في مثل السّؤال التّالي:

- هل جاء عمر؟

فتقول: -هل جاء؟

وكأنّك أنت لا ترغب في ذكر اسم الشّخص المسؤول عنه (عمر) لسبب من الأسباب، فتكون دلالة الحذف أبلغ من الدّكر في سياقات معيّنة، لكنّ عنصريّ الإسناد (المسند والمسند إليه) يحافظان على وجودهما داخل التّركيب، وإن غاب أحدهما حذفاً.

ويتبقى العلاقة الإسناديّة قائمة بينهما رغم غياب أحدهما، لكونها قوام التّركيب في اللّسان البشريّ لحصول الفائدة والإفادة، والكشف عن مختلف المقاصد والمعاني "ومختصر كلّ الأمر: أنّه لا يكون كلام من جزء واحد، وأنّه لابدّ من مسند ومسند إليه، وكذلك السّبيل في كل حرف رأيته يدخل على جملة، كأنّ وأخواتها؛ ألا ترى أنّك إذا قلت (كأنّ) يقتضي مشبّها ومشبّها به، كقولك (كأنّ زيذا الأسد) وكذلك إذا قلت (لو) و(لولا) وجدتها يقتضيان جملتين، تكون الثّانيّة جواباً للأوّل⁽¹⁾" فطرق تعلق الألفاظ بعضها ببعض التي ذكرها الجرجاني والتي تمثّل معاني النّحو وأحكامه هي التي كان العرب يتوخّونها في كلامهم تردّ موافقةً للمعاني المرتبة في نفوسهم بطريقة مخصوصة. وإنّ الذي يميز بين الأساليب الكلاميّة ليس الحركات التي تطال أواخر الكلمات، ولا معرفة الألفاظ في حدّ ذاتها، وإنّما تميّزها المعاني المستفادة من التّراكيب الموضوعية وفق ترتيب دقيق، ومن ثمّ فمعرفة إعراب الألفاظ المفردة والتّفنّن فيه ليس وحده العمدة في معرفة القواعد النّحوية والتّمييز بين المعاني المختلفة، ولكن فيما تُؤدي إليه هذه القواعد من دلالة على المعاني التي

(1) - دلائل الإعجاز، ص 60.

يقصدها المتكلّم، "واعلم أنّا لم نُوجِب المزيّة من أجل العلم بأنفس الفروق والوجوه فنستند إلى اللّغة، ولكنّا أوجبناها للعلم بمواضعها، وما ينبغي أن يصنع فيها؛ فليس الفضل للعلم بأنّ ((الواو)) للجمع و((الفاء)) للتّعقيب بغير تراخ، و((ثمّ)) له بشرط التراخي، و((إنّ)) لكذا و((إذا)) لكذا؛ ولكن لأنّ يتأتّى لك إذا نظمت وألّفت رسالة أن

تحسن التّخيّر، وأنّ تعرفَ لكلّ من ذلك موضعه² وإدراك عبد القاهر الجرجاني لأهميّة طبيعة التّركيب ودوره في التّمييز بين المعاني وتوضيح المقاصد مكّنه من الارتقاء بمفهوم النّحو، بحيث لا يتوقف عند حدود المبني دون المعنى، بل يشملهما جميعا في إطار مفهوم تداوليّ وظيفيّ واسع وشامل لكلّ جوانب اللّغة وضعا واستعمالا. ومن ثمّ فالتركيب اللّغوي عنده يقوم على جملة من العلاقات النّحويّة التي تتولّد عنها المعاني بحضور الارتباط الضّروري بين طرفي الإسناد، حيث يتعلّق المسند والمسند إليه بجملة فعلية أو اسميّة بحسب المعاني التي يتوخاها المتكلّم، ومن ثمّ فإنّ تركيب عناصر الجملة تحدّده العلل الوظيفيّة والدلاليّة والتّداوليّة للتركيب المنتجة من طرف المتكلّم، وليست وظيفة القاعدة النّحويّة وحدها، وإذا كان الجرجاني أولى اهتماما لوظيفة الجملة العربيّة من حيث أنّها الوحدة الأساسيّة في عملية الكلام، وتبليغ المعاني، فإنّه يربط تلك الوظيفة بظاهرة التّعلق والتّلازم التي تربط هي الأخرى بين أجزاء الجملة وأطرافها، مما تستدعيه ضرورة المعنى وما تستدعيه مقاصد التّخاطب بحيث يُقدّم من أطراف الجملة، أو يؤخّر، أو يحذف، أو يُذكر، أو ينكّر، أو

²-- دلائل الإعجاز. ص 261.

يُعرّف بحسب ما يعنّ للمتكلّم من خواطر وأفكار ومقاصد أثناء الحدث الكلامي. وهكذا يصبح هذا العنصر المتقدّم أو المتأخّر أو المحذوف بؤرة الكلام والمحور الذي يدور حوله الحديث الذي يُراعي فيه المتكلّم أحوال السّامع "وهنا نكتة يجب القطع معها بوجوب هذا الفرق أبداً، وهي أنّ المبتدأ لم يكن مبتدأ؛ لأنّه منطوقٌ به أولاً، ولا كان الخبر خبراً؛ لأنّه مذكورٌ بعد المبتدأ، بل كان المبتدأ مبتدأ؛ لأنّه مسند إليه، ومُثَبَّتٌ

المعنى، والخبر خبراً؛ لأنّه مسند ومُثَبَّتٌ به المعنى" ¹ ومن خلال هذا النّص يؤكّد الجرجاني أهمية حضور الوظيفة الدّلاليّة والتّداوليّة للتّركيب أثناء عملية التّواصل من أجل توضيح دور المعاني في تحديد نوع التّعامل مع الوحدات المكوّنة للجمل أو التّراكيب، إذ لا يمثّل الجانب اللّفظيّ أو الشّكليّ وحدّه العمدة في ثبات هذه الوحدات داخل التّراكيب أو تغييرها بالتّقديم والتّأخير، أو بالحذف والذكر، فالمبتدأ لم يسمّ بهذا الاسم؛ لأنّه يأتي في صدر الجملة الاسميّة، بل لأنّه مسند إليه الخبر، ويبنى عليه فعل التّخاطب أو التّواصل، فالعلل التّداوليّة والدّلاليّة هي التي جعلت المبتدأ في الصّدارة لا الخبر، ولو كان الخبر يمثّل بؤرة الكلام ومقصده لتقدّم على المبتدأ، فالعلل الدّلاليّة أو التّداوليّة هي المسؤولّة إلى حدّ بعيد عن ترتيب عناصر الجملة ترتيباً مخصوصاً، وهي أيضاً المسؤولّة عن غياب بعض الوحدات أو حضورها. وهو ما يفسّر لنا كثيراً من الظّواهر اللّغويّة والأسلوبيّة التي تعتري عناصر الجملة من تغيير حسب ما تتطلبه ضرورة مراعاة حال المخاطب وحاجته أثناء الكلام.

¹ - دلائل الإعجاز. ص 212.

لم تتوقف ملاحظات الجرجانيّ وإشاراته الدّكيّة عند حدود الجملة باعتبارها وحدة الكلام التي تتفرّع منها سلاسل الخطاب، وتفسير أسباب تعدّد وجوه تراكيبها وإنّما تحدّث أيضا عن عناصر الحدث الكلامي وسياقات التّخاطب، كالمتكلم (المُخبر) والسّامع (المُخبر) والعلاقة التي تربطهما أثناء عمليّة الاتّصال، إذ "أنّ النّاس إنّما يكلم بعضهم بعضا ليعرف السّامع غرض المتكلم ومقصوده"² فعندما نتكلم مع الآخرين

ننوي إخبارهم بما في نفوسنا أو نطلب منهم أشياء نجهلها نريد أن نعرفها أو نفهمها أو نعبر عن رغبة أو عاطفة ما. فعبد القاهر الجرجاني يدرك جيّدا أهميّة مراعاة عناصر الحدث التّواصلي الأساسيّة في تبين معاني الخطاب وتأويل دلالاته.

إنّ المنهج الذي اعتمده عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز وهو يقوم بتحليل مختلف العبارات اللّغويّة المحتمل ورودها في سياقات خطابيّة ممكنة جعله يمثل منعطفًا لسانيًا حقيقيًا في تاريخ الدّراسات اللّغويّة القديمة، وبهذا الصّنيع يكون قد عثر على الحلقة المفقودة بين الأحكام النّحويّة وحكمه التي تمكّنا من فهم مختلف الخطابات والتّمييز بينها.

المكوّنات الأساسيّة لإنتاج الخطاب وفقهه لدى الجرجاني.

يرسم عبد القاهر الجرجاني مخطّطا لعمليّة إنتاج الخطاب واستيعابه من خلال تحديد نقطة البدء والانطلاق وصولا إلى نقطة الانتهاء. وقد بنى هذا المخطط التّصوّري لإنتاج مختلف الخطابات على فكرة محوريّة وهي مقاصد المتكلمين

²- المرجع نفسه. ص 488.

ونواياهم التّواصلية وأغراضهم الخطابية. وهي فكرة تشكّل نواة التّخاطب وتحدّد هويته الدّلالية، وترسم شكله اللّغويّ وصورته الصوتية التي تظهر في سلاسل الكلام. فالأغراض والمعاني (النّوايا والمقاصد) التي تخطر في المتكلم المنشئ للكلام تمثّل نقطة بداية الإنتاج الكلاميّ " وأنك ترتّب المعاني أولاً في نفسك، ثمّ تحذو على ترتيبها الألفاظ في نطقك" ¹ وقبل الوصول إلى الصّورة النّهائية للكلام المنتج أو عملية

التّخاطب هناك عمليّات ذهنيّة متنوعة، يتمّ إجراؤها وهي عمليّات جدّ معقّدة على هيئة منظومة متعدّدة العناصر، تتألف من مكّونات أساسيّة خمسة:

1-مكوّن المعاني؛ ويتضمّن الخواطر، والأفكار، والمعاني، والنّوايا التي تقف خلف إنشاء الكلام وإنتاج الخطاب.

2-المكوّن المعرفيّ؛ وهو مجموع المعارف المكتسبة حول عالم الأشخاص والأحداث، والأشياء، وهذا المكوّن ذو بعد تداوليّ. ويمثّل معرفة العالم لدى مستعملي اللغة. وتشمل نوعين من المعرفة: معرفة علميّة خاصّة، ومعرفة موسوعيّة عامّة. فالمعرفة الخاصّة معرفة قصديّة واعيّة، ترتبط بمجال اكتسابيّ محدّد مثل اكتساب الحرف أو العلوم. أمّا المعرفة العامّة فهي في أغلبها معرفة مكتسبة بطريقة عفوية لا شعوريّة، يكتسبها الأشخاص من المحيط الحيوي الذي يعيشون فيه ويتفاعلون مع أحداثه وكائناته، وهي أيضاً معرفة ضرورية في عملية التّواصل والتّبيين بين المتكلّم والمخاطب.

¹ -دلائل الإعجاز. ص 416.

3-المكوّن النّحويّ؛ ويتوفّر هذا المكون على نوعين من القواعد المتواضع عليها، ويراد بالوضع حدوث الكلام والتّخاطب على صيغة منظومة، فإذا لم ينجز بها لا تحصل به الفائدة. ولكلّ لغة بشريّة نظامها النّحويّ الخاصّ بها، والذي تتفرّع عنه قواعدها، وهذه القواعد نوعان:

أ-مجموعة من القواعد الوجوبيّة المحدودة؛ وتمثّل قوام النّظام النّحويّ للغة الطّبيعيّة يحدّد خصوصيّتها، حيث توجد بوجوده، وتنعدم بانعدامه أو الإخلال به. هذه القواعد تمثّل جزءا من قوانين عم الوضع اللّغويّ، لا تقبل التّغيير ولا التّعديل

وإلا انفرط عقد نظام اللّغة التي يشكّل هيكلها وبنيتها الصّوتيّة. مثل قواعد الإعراب والبناء، والإسناد والتّركيب وقواعد الأدوات والمطابقة والربط... إلخ. ومستخدم اللّغة كفرد لا يمكنه ولا يستطيع أن يغيّر في هذه القواعد، وما عليه إلا الإذعان لها؛ لأنّها تندرج ضمن المظهر الاجتماعيّ للغة على حدّ تعبير دو سوسير.

ب-مجموعة من القواعد الجوازيّة؛ وهي مجموع القواعد التي يُجيزها النّظام النّحويّ، ولا تُفسده ولا تُبطله، وإنّما هي قواعد تُفرضها قيودُ الاستعمال وتحدّدُها قوانينُها من أجل التّعبير عن مقاصد الخطاب غير المنتهيّة. ويمكن أن نمثّل لهذه القواعد الجوازيّة بالتّقديم والتّأخير بأنواعهما والحذف بأنواعه، والقواعد الخاصّة بجواز تعدّد استعمالات الوحدات النّحويّة في المواضع المختلفة، وما ينجم عنها من تعدّد الفروق المعنويّة لتحقيق المقاصد والتّبيين عن النّوايا والأغراض التّواصليّة. وتتيح هذه القواعد الجوازية لمستعمل اللّغة الحرّيّة في الاختيار منها ما يناسب طبيعة أحوال الخطاب والمقاصد والأغراض التي يؤمّها.

4-المكوّن المعجميّ؛ ويشمل قائمة المفردات اللّغوية(المعجم) تخصّ لغة معيّنة، وعلاقات تلك المفردات بمدلولاتها.

5-المكوّن الصّوتيّ؛ وهو المكوّن الأخير في منظومة اللّغة، وبه يكتسب الخطاب حضوره ووجوه مشافهةً أو تحريراً في صورته الحرفيّة والصّوتيّة.

تخضع الوحدات اللّغويّة المكوّنة للخطاب في صورته النّهائيّة إلى نوع خاصّ من التّرتيب على هيئة مخصوصة، تفرضها طبيعة الأغراض والمقاصد التي تراعي

مقتضيات التّخاطب وملايساته "... الإنسان لا يستطيع أن يجيء بالألفاظ مرتّبة إلّا من بعد أن يفكّر في المعاني، ويرتّبها في نفسه على ما أعلمناك، ثمّ يفتّش فتراه لا يعرف الأمر بحقيقته، وتراه ينظر في حال السّامع، فإذا رأى المعاني لا تقع مرتّبة في نفسه، إلّا من بعد أن تقع الألفاظ مرتّبة في سمعه، نسي حال نفسه، واعتبر حال مَنْ يسمع منه. وسبب ذلك قصر الهمة وضعف العناية"¹ فالمقاصد والمعاني هي صناعة الخطاب ومحدّدة لبنيته الشّكليّة إلى حدّ بعيد" وأنا لو فرضنا أن تخلو الألفاظ من المعاني، لم يُتصوّر أن يجب فيها نظم وترتيب "² ويمكن أن نصوغ منظومة المكوّنات الأساسيّة لإنتاج الخطاب في الشّكل التّالي:

مكوّن المعاني (الأفكار، النّوايا، المقاصد، الخواطر)،



¹ - دلائل الإعجاز. ص 416، 417.

² - دلائل الإعجاز. ص 416.

المكوّن المعرفيّ



المكوّن النّحويّ



المكوّن المعجمي



المكوّن الصّوتي (الكلم داخل التّراكيب المتلفّظ بها)

خاتمة

وبعد هذا العرض لأهمّ الأفكار التي قصدنا الوقوف عندها يمكننا تحديد أهمّ المفاهيم التي بنى عليها الجرجاني اتّجاهه الجديد في الدّراسة النّحويّة، أو ما يسمّيه بمعاني النّحو واصطلحنا نحن على تسميته بـ (فقه النّحو) باعتباره فرعاً من فروع المعرفة اللّسانيّة في التّراث العلميّ العربيّ، يمثّل قاعدة ومنطلقاً يمكننا استثمار الأفكار التي تضمّنها في توسيع دائرة الدّراسات اللّسانيّة العربيّة المعاصرة وترقيتها.

تعتبر محاولتنا هذه عملاً تأصيليّاً لحقل معرفيّ وضع أسسه العلميّة والمعرفيّة عبْدُ القاهر الجرجاني "ومن هنا نحن محتاجون إلى (فقه) للنّحو يصل إلى درجة الضّرورة. صحيح أنّ قسماً من المسائل المتعلّقة بالمعنى عرض لها علمُ النّحو وعلمُ البلاغة،

لكن لا يزال كثير منها دون نظر¹، لقد سبق عبد القاهر غيره في معالجة هذه الموضوعات التي يمكنها أن تشكّل محور بحث في فقه النّحو، حيث اعتمد في معالجتها على مجموعة من الأفكار التي ابتدعها، والتي مثّلت نقطة مركزيّة في كتابه دلائل الإعجاز مثل فكرة التّعليق، وتبعيّة مواقع الألفاظ في السّلسلة الكلاميّة لمواقع المعاني في نفس المتكلّم ومفهومه للبيان والفصاحة والباغة، وربطه كلّ ذلك بالأبعاد التّداوليّة والعرفيّة للخطاب. ويمن إيجاز نتائج البحث فيما يلي:

- إنّ موضوع هذا العلم الذي اقترحنا تسميته بفقه النّحو البحث في العلاقات الرابطة بين الأحكام النّحويّة وحكمه (مقاصده) وربطها بمختلف سياقات الخطاب وملابسات التّواصل اللّغويّ. إنّه بحث في وظائف البنى النّحويّة وتنوّعها بتنوع مقاصد المتكلمين.

- يمكن لفقه النّحو أن يمدّ تعليميّة اللّسان العربيّ وقواعده بجملة الآليّات التي تمكّنها من تعليم النّشء القواعد النّحويّة الوجوبيّة (المتعلّقة بالوضع اللّغوي) والجوازية (المتعلّقة بالاستعمال اللّغويّ الفعليّ) تعليمًا وظيفيًا وبطريقة ميسورة، يساعده في امتلاك القدرة على التّصرّف في وجوه الكلام بكل يسر.

- فقه النّحو يفيدنا كثيرًا في التّأويل الدّلالّيّ للآيات القرآنية الكريمة التي وردت بقراءات متعدّدة ووجوه إعرابيّة متعدّدة أيضًا.

- فقه النّحو يتيح لنا دراسة الجوانب الوظيفيّة والتّداوليّة للسان العربيّ.

¹ -فاضل صالح السامرائي. معاني النّحو. دار الفكر للطباعة والنّشر والتّوزيع. الطبعة الأولى. عمان،

الأردن: 2000. ص: 8.

فقه النّحو عند القاهر الجرجانيّ من خلال كتابه دلائل الإعجاز

- ما تركه لنا عبد القاهر الجرجاني من أفكار لسانية في كتابه دلائل الإعجاز يستحق الإثراء والاستثمار في مجال تعليميّة اللغة العربيّة.
- إنّ ما يعرف بعلم المعاني الذي يمثّل جزءا من العلوم البلاغيّة، هو فرع مستقل عن العلوم البلاغيّة، يمثّل الشّق الثّاني لعلم النّحو.
- إنّ قسما كبيرا لموضوعات فقه النّحو المقترح مبثوثة في كتب علماء الأصول والتّفاسير، فكثيرا ما كانوا يستدركون المسائل النّحويّة التي يكون قد أغفلها النّحاة أو لم يشبعوها درسا، لاسيّما منها تلك التي تُسهم إسهاما واضحا في تأويل النّصوص، وتوضيح مقاصدها.

قائمة المراجع

- القرآن الكريم

- الكتب:

- أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني 14
- الجمل. تحقيق علي حيدر: 1972. دمشق. دار الحكمة.
- دلائل الإعجاز في علم المعاني، ط1. بيروت: 2000 المكتبة العصرية.
- أبو هلال العسكري. الفروق في اللغة. تحقيق لجنة إحياء التراث العربي. الطبعة الخامسة. بيروت: 1983. دار الأفاق الجديدة
- إبراهيم مصطفى، إحياء النّحو. الطبعة الثّانية. القاهرة: 1992. مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنشر.
- تمام حسان، اللغة العربيّة معناها ومبناها، دار الثقافة. المغرب: 1994

فقه النّحو عند القاهر الجرجانيّ من خلال كتابه دلائل الإعجاز

- صالح بلعيد، التراكيب النحويّة وسياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني. الجزائر: 1994. ديوان المطبوعات الجامعية..
- في قضايا فقه اللغة العربية، ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر: 1995